قصّتان جديدتان لألبرتو مورافيا

ترجمة نبيل المهايني

ظهرت في مكتبات روما في المدة الاخيرة احدث قصص الروائي الايطالي المعروف البرتو مورافيا . اسم الكتاب « الفردوس » ، وفيه نرى ان « اربعا وثلاثين امرأة يتكلمن عن انفسهن بضمير المتكلم » .

واذا كان لا يوجد فرق بين النساء والرجال ، فان ما يحدث للنساء يختلف اشد الاختلاف عما يحدث للرجال . اما الموضوع الرئيسي في « الفردوس » فيدور حول صعوبة العيش في عالم من المستحيل ان نقيم معه الا علاقات غير مباشره . ان كل امرأة في « الفردوس » تكون لنفسها مفهوما عن الواقع متوهمة بانها ستملكه وتحوز عليه بهذه الطريقه ، لكن الواقع يفر ويفلت . وكما كان يقال عن الجحيم ، فان « الفردوس ايضا موجود ، لكنه فارغ » .

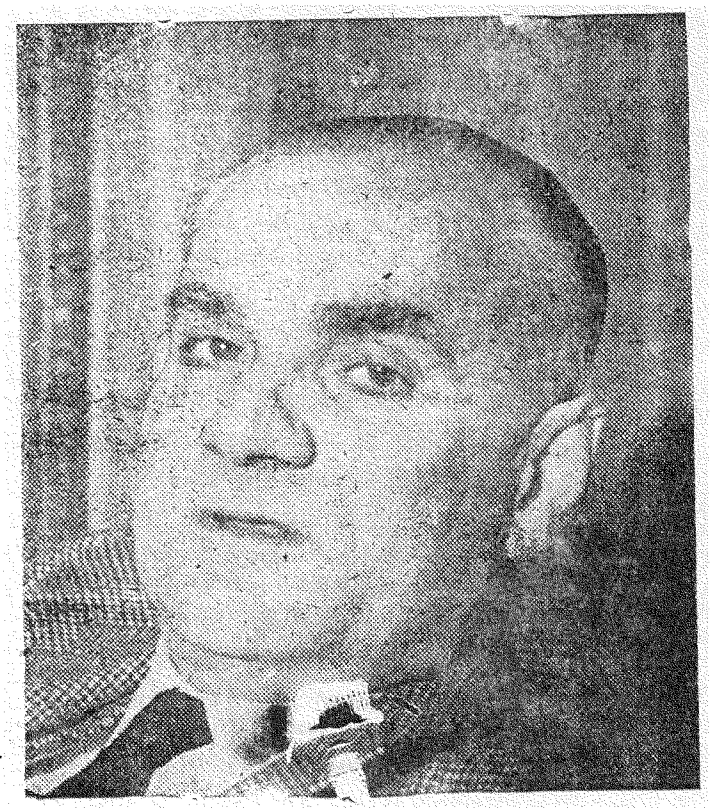

البرتو مورافيا

هذا عن الموضوع كمحتوى ، اما عن الاسلوب وطريقة البحث فأرى انه من المفيد ان اضع امام القارىء العربي ترجمة لمقطع من مقدمة لالبرتو مورافيا ظهرت في كتاب (كتّاب الواقع من القرن الثامن الى القرن التاسع عشر) والذي صدر عام ١٩٦١ في ميلانو . يقول مورافيا متحدثا عن الفرق بين الواقعية والطبيعية : « (..) ومن المفيد ان نرى كيف تصرف فنانو النوعين ، واقعيين وغير واقعيين ، تجاه « الازمة » التي بدأت ومنذ خمسين سنة تعصف بالثقافة الغربية . وكما هو واضح ، فان هذه الازمة ظاهرة المعالم في البحث المستمر عن وسائل تعبيرية جديدة وعن تكنيكات جديدة وعن لغات واساليب جديدة ، ثم وكنتيجة ، فهي دائمة في اللااتصال واللاتفاهم المتصاعدين في القضية الشعرية والتي وكيما تفهم وتقدر ، هي بحاجة لان تخضع لعدم استقرار التجريبيات والطلائعيات . والان ماذا نلاحظ في هذه الازمة ؟ اننا نلاحظ بان العديدين من الفنانين قد اغرتهم محاولات النقل الميكانيكي والسلبي والفوتوغرافي ، اي وباختصار ، الطبيعي لتعابير واشكال اللغة ، وذلك على الطريقة التي يسجل بها مسجل الهزات ميكانيكيا ارتعاشات هزة ارضية ما . أي انهم قد تصرفوا تجاه الازمة على طريقة الباروكيين والذين كانوا يكتفون ، هم ايضا ، باعادة بناء الازمة وبانتاجها بصورة ميكانيكية دون ان يتدخلوا الا على السطح النمطي والطرازي تاركين اعماق الاشياء على ما هي عليه .

اما مواقف الواقعيين امام الازمة فتتلخص بانها تصور الازمة نفسها ، وهذا لا يستثني ، بل وعلى العكس يتضمن ، تحولات هائلة بعض الاحيان في تكنيكات اللغة والاسلوب ، لكن بصورة طبيعية اي ليست بالطوعية ولا بالتجريبية (..)»

الفردوس

أتناول انبوب الاقراص المنومة وافرغ كل ما فيه في كأس ماء موضوعة على الطاولة . كم من الاقراص يحتوي ؟ كثيرة ، اكثر من الضروري لحملي على القيام برحلة طويلة تنتهي بالفردوس بسحبة نفس واحدة ودون أي توقف . وانظر اليها بينما هي تنحل . ها هي تشكل كتلة بيضاء في قعر الكأس ، بينما تتصاعد فقاعات هواء كثيرة لتنفجر على السطح . لكن في هذه اللحظة بالذات يرن جرس الهاتف . واعرف صوت مفدة ، صديقتي العزيزة المترهلة . فابادرها بقولي « انك تخابيرينني قبل فوات الاوان لتقولي لي وداعا » .

ـ « لماذا ؟ »

ـ « لاني كنت في سبيلي للانتحار بالاقراص المنومة » ..

لكن مفدة انسانة لا تدهش لاي شيء . وربما كان هذا هو سبب استمرار صداقتنا . فانا ادهش لكل الاشياء ، وربما لم تكن الاشياء في حد ذاتها هي التي تدهشني ، بل كون تلك الاشياء موجودة . فانا امام حجر ، على سبيل المثال ، اتوقف واجمد متسائلة وكلي دهشة :

كيف يمكن لشيء اسمه حجر ان يوجد ؟ اما بالنسبة لمفدة فان حجرا ما هو حجر وكفى .

ولهذا فاني اسمعها تتابع مصرة ، وكأنها لم تسمعني : « اني اخابرك لاقول لك بأننا مجتمعون هنا في بيتي وبأننا في انتظارك » .

ـ « ومن هناك ؟ »

ـ « يوليوس قيصر ، ليوناردو دافنتشي ، دانتي اليغييرى ، جوزيبه غاريبالدي ، نابوليون .. »

فأظاهر بأني لم اهتم للمزاح وأجيب :

ـ « انفضنا ، سآتي بعد تهيئة نفسي » .

واعيد سماعة الهاتف الى مكانها ، ثم اتحرر من لفائف الغطاء حيث كنت سجينه منذ يومين . ويبدأ كلبي ، زن ، حالما يراني وقدمي على الارض ، بالقفز حولي ، فهو يأمل أن اقوده الى النزهة خارج البيت ، يا للكلب المسكين ، لقد قضى ثماني واربعين ساعة وهو ساكن بلا حراك في ظلام الغرفة . الا اني اقول له في الحال : « لا يا زن ، ارقد ، اهدأ » . ثم اعطيه ، كيما اهدىء من روعه ، اخر قطعة بسكويت بقيت في الطبق . فمنذ يومين ونحن ، زن وانا ، نتغذى بالشاي والبسكويت ، وان كان نصيب الكلب منهما اكبر من نصيبي . لكن هذا لا يعني انني لست على ما يرام ، بل على العكس . وهكذا فاني اذهب الى الحمام وافتح الدوش لافف تحت شلال الماء الساخن وعيناي مغمضتان . واذ تنحدر المياه على رقبتي تومض في خيالي كالبرق الصورة التي يروق لي ان ارسمها على جلدي انها كالرؤية ، فأنا ارى الرسم بكل دقائقه وكما لو انه قد سبق لي رسمه .

واغلق الدوش ، اجفف نفسي ، ثم اذهب عارية لاجلس على السرير . واتناول علبة الاقلام وابدأ بالرسم على بطني . فأجعل من السرة عينا ذات حدقة زرقاء وحواجب سوداء ، ثم احيط هذه العين بدوائر ارابسك موحدة المركز متموجة ، حمراء وزرقاء وخضراء وصفراء وممتدة في كل انحاء بطني . ثم ارسم خلف الآرابسك ، كما خلف موجات بحر ، وجه راهب هندي بعين واحدة هي السرة ، وبأنف معقوف ذي خياشيم متسعة هي ثنية البطن ، ثم شاربين كثيفين سوداوين وذقنا محدبة هي مثلث شعر عانتي . وبعد انتهائي من البطن انتقل الى الصدر . فارسم بالقلم الكثير من الخطوط على الاضلاع فتبدو وكأنها صورة الموت في رفصات العهد المتوسط المخيفة . والان دور النهدين . ومع اني رشيقة ملتفة القوام كالحية ، فان لي ، وللاسف ، نهدين متطاولين ومكتنزين ، مطروحين واحدا من هنا والاخر من هناك كحبتي قرع . لكني بعد القليل من التفكير اقرر بانه ليس لدي الوقت الذي ارغب كيما ارسم عليهما صورتين لفيزنو وهو يرقص بأذرعه وسيقانه العديدة ، على ان يكون المركز هو الحلمة . وهكذا اكتفي بتلوين النهدين جزئيا احدهما بالاخضر والثاني بالاحمر ، بينما اجعل من الحلمتين واحدة حمراء والاخرى خضراء . وبعدها امر مسرعة على الذراع ، فارسم الكثير من شارات الذراع العسكرية الزرقاء والحمراء . ثم ارسم اشارة تعجب صفراء على يدي اليسار واشارة استفهام بنفسجية على اليمين . وبعدها اصل للوجه ، واضع بودرة داكنة ، دون احمر شفاه ، وعينين غارقتين في المحاجر السوداء . ولحسن الحظ فان شعري محلول وطويل ويكفي تمرير الفرشاة خلاله مرة او مرتين . وهنا يأتي الكلب المسكين ، والذي قضى كل ذلك الوقت يراقبني ساكنا دونما حراك ، يأتي جنبي وفي فمه الرسن الذي اقوده به عادة عندما نخرج . لكني آخذ الرسن من فمه واداعبه قليلا ثم ابدأ في ارتداء ملابسي .

ارتدي بنطالي الاسود المخملي العريض في اسفل الساقين وذي الخصر الواطىء جدا ، وذلك بشكل يظهر فيه بطني بكل رسومه . ثم احيطه بحزام جلدي اصفر ذي مقفل يكاد يكون بنفسجيا . ثم ارتدي قميصا شفافا اسود مطرزا بنجوم ذهبية واعقده تحت نهدي الطافحين من شدة غزارتهما والمنفجرين اثارة باخضرار الاول واحمرار الثاني .

وبعدها احيط عنقي بخمسة اطواق قليلة القيمة لكنها ذات معنى فلسفي واسع . وكان قد اتاني بها من بلد في جنوب الهيمالايا صديق مكث هناك شهرين ثم عاد بالفيروس في كبده . واتى دور خواتمي المشهورة ، فاضعها في اصابعي ، ثلاثة في كل اصبع ، بينها واحد ذو حجر وردي ضارب للخضرة . وفي النهاية ارتدي فوق القميص عباءة مخملية ذات لون ضارب للبنفسجي .

لكن تبقى مشكلة الكلب . فانا لا أريد آخذه معي ، اذ انه من العسير التكهن كيف يمكن للامسية ان تنتهي ، خاصة وانها في بيت مفدة ، فيمكن حتى ان افقده ، ولذلك فاني احذره حالما اراه يهز بذنبه متقدما جنبي نحو الباب : « لا يا زن ، اهدأ ، دعك هنا ، ثم اياك ان تنبح » . نعم ، هباء في هباء . فما ان بلغت دهليز البنسيون حتى سمعت عواءه يعلو غاضبا . وعندها يبرز صاحب البنسيون من حيث لا ادري ، وهو رجل قبيح اصلع كالركبة في الساق ، له وجه حارس كنيسة ونقرة شرطي ، ثم يقول لي : « يا انسة ، هذا لا يمكن ، انها الواحدة ، وكلبك بنباحه هذا سيوقظ كل النزلاء في البنسيون ، اجعليه يسكت والا .. » . لكني اشير اليه بيدي مسرعة : « حسنا ، حسنا ، لكن ادع لي سيارة بينما اذهب انا لاسكاته » . ثم اعود لغرفتي ، افتح الباب ، واجد الكلب هناك ، في منتصف الغرفة ، ينظر الي بنظرة مسترحمة . فأتناول صحنا واصب فيه بعضا من الماء الذي وضعت فيه قبل قليل الافراص المنومة . ثم اضيف اليه بعضا من الحليب وثلاث ظروف سكر . وهكذا فان الكلب الواثق الجائع يسارع في اللعق بينما انتهز الفرصة انا لاخرج . واقول لصاحب البنسيون : « سترى انه لن ينبح بعد الان » .

اركب السيارة وارتمي على المقعد بينما اقول منهكة : « لنذهب الى بيت مفدة » . فيسألني السائق : « ومن هي مفدة ؟ » فأجيبه وقد نفد صبري : « كيف من هي ؟ اما زلنا عند هذا الحد ؟ انه لا يوجد اي شخص في العالم ليس احدا ما ، على اية حال وبما انك تصر على معرفة من هي ، فهي افضل صديقاتي » . لكن ربما اني اتكلم مع الجميع بصيغة الصدافة ، عدا صاحب البنسيون ، فان بعض الرجال يعتبرونها لهجة تحبب ومودة ، وقد كان السائق من بينهم . وبالفعل فها هو يرمقني بنظرة دهشة وحذرة ثم يتابع مصرا : « لكن اين تقطن ؟ » . فأجيبه حانقة وانا اشير بيدي : « اذهب الى الامام ، الى الامام ، وبعدها تلقى مفدة » . المشكلة هي اني قد نسيت العنوان ، واذا نسي المرء شيئا فكيف له ان يتذكره ؟ اما السائق ، وهو شاب اسمر لا بأس به ، فينظر الي محتارا وكأنه يسألني بالفعل اين يمكن لمفدة ان تقطن ، لكنه وقد عرته النخوة ، يدير المحرك بسرعة وينطلق .

وبينما تجري السيارة مسرعة ملقية بي هنا وهناك عند كل منحنى ، احاول تذكر الاسباب التي كنت اود من اجلها الانتحار قبل قليل . لكني لا اتوصل الى اي شيء : فالسبب الرئيسي هو اني كنت قد قلت لمفدة منذ ثلاثة ايام بأني اريد الانتحار . لكن اسباب هذا السبب الرئيسي قد نسيتها تماما . لكن لا بد وان تكون من النوع الفلسفي : فنحن اليوم نعيش ، واذن فنحن ايضا نموت ، فالاسباب فلسفية . لا يهم ، على اية حال سأذهب عند مفدة ، سارقص ، ولنفترض ، حتى الخامسة صباحا وبعدها سأعود الى البنسيون واتناول الاقراص المنومة . وهكذا فان ميتتي قد اجلت وحسب .

وتقف السيارة فجأة محدثة رجة قوية ، وعندما انظر من النافذة ارى اننا في الريف .. ليس هناك من اضواء ، يجلس جنبي ملقيا نفسه علي وبنيته اغتصابي . يمسك بقميصي الشفاف ذي النجوم الذهبية وينزعه عن صدري ثم وفي نفس الوقت يحاول فك مقفل الحزام . وبالطبع فاني ادفعه عني واصارع ، بل اني في النهاية افلح بطعنه بركبتي في بطنه وبالقائه في صدر السيارة . لكني ما البث ان اكلمه بهدوء . واقول له انه اذا اراد فان بامكانه ، بعد الوصول عند مفدة ، ان يصعد معي ويرقص ويشرب ويمكث معنا . وفي النهاية فانه

سيجد تشيشيليا ، والتي وبما انها دون مأوى ، فهي على استعداد دائم وستقبل بمصاحبته وبمجامعته ، هذا اذا كان مستعدا لتوفير مكان لها تنام فيه . وان لم يكن الامر مع تشيشيليا فسيكون مع غيرها . لكنه خلال سماعه هذه الكلمات يرمقني بنظرة وقد اصبح بشعا كثور في سبيله للانقضاض. وينقض علي بالفعل. يمسك بمجامع شعري ويرميني خارج التكسي ثم يصعد خلف المقود وينطلق بسرعة عظيمة .

وانهض جريحة مليئة بالغبار لاعبر الدرب بكامله وانا اعرج ، حتى اصل الى الشارع . ثم اجلس على طرف حاجز الطريق وافرد التهدئة من روعي بمحاولتي مطابقة نفسي مع اي شيء يقع عليه ناظري ، وذلك ببذل جهد تأملي مناسب . وارى انه توجد هناك ، على طرف حفرة ، زهرة تنيرها بعض الاضواء ، وهي معروفة جدا ، حيث انها نوع من الاقحوان الاصفر . واحدق بها مشدوهة ، عازلة نفسي ومركزة انتباهي بشكل يصبح معه العالم كله غريبا قصيا . لكن وفي بدء الامر فان الزهرة « تقاوم » . مؤكدة ، بكل مسكنة وبرجوازية ، على شخصيتها ، اي على تميزها عن شخصيتي ، وذلك بأن تدافع عن لون اوراقها وشكلها وطول سافها ، وذلك على انها كلها ، ومن خلال وجهة نظرها ، سمات فردية تمنعها من الاختلاط بي . لكني اضاعف من تركيزي محيطة الزهرة بحبي ، وهكذا ، وببطء ، ارى ان الاقحوانة « تخضع » ، واحس بنفسي تدريجيا باني قد اصبحت الزهرة وبأن الزهرة قد اصبحت انا . والاحظ بان التطابق عميق لدرجة اني ، في النهاية ، اكاد الا انتبه للكثير من السائقين والذين بدأوا بالتوقف ليوجهوا لي الاسئلة المدنيئة المعتادة :« واذن ، الا تذهب ؟ » ،« كم تريدين ؟» ، « كم هي التسعيرة ؟ » واسئلة اخرى مشابهة .

انه النهار ، ها هي الشمس تشرق خلف صفوف الاشجار ، وضاءة برافة كالجوهرة ، وانتبه الى اني حزينة حزينة . فأقرر بأن انهي التطابق التأملي . وهكذا فاني « انسحب » من الزهرة ، و « تنسحب » الزهرة مني . نفترق على حين غرة : اعود لاصبح فتاة كاية فتاة ، جالسة على حاجز الطريق ، وتعود الزهرة لتصبح كاية زهرة نبتت على حافة الحفرة . وانهض بتعب بالغ وانا متصلبة الاعصاب مجلودة منهكة، ثم ارفع ذراعي لاقوم باشارة الاوتوستوب . وفي الحال تقف احدى السيارات مفرملة بصرير حاد . وارى خلف المقود راهبة كهلة والى جنبها راهبة اخرى عجوز ، اما في الخلف فتوجد راهبة ثالثة لكنها شابة ، بل انها فتاة لها وجه ابيض وعينان زرقاوان . فاصعد جنب هذه الاخيرة ، فتنطلق السيارة من جديد . لكن الراهبة العجوز ما تلبث ان تسألني عن عنواني ، ثم تضيف ، دون ان تتحرك ودون ان تلتفت :

ـ « ماذا كنت تفعلين يا بنيتي وانت جالسة على حاجز الطريق ذاك وفي السابعة عند الصباح ؟ »

ـ « كنت انطابق مع الاقحوانة يا اماه » .

وينتفخ ، عند هذا الجواب ، وجه الراهبة الشابة الجالسة جنبي ، ليصبح احمر بهيجا ، وكأنها تمنع ضحكتها من الانطلاق لكن بصعوبة بالغة . وما تلبث العجوز ان تعاود استجوابي .

ـ « ولماذا انت على هذه الحال ؟ »

ـ « على اية حال ؟ »

ـ « هكذا نصف عارية ، وتلك الالوان » .

ـ « لاذهب عند مغدة » .

ـ « ومن هي مغدة ؟ »

وهنا افقد صبري واصيح : « مغدة وانا وتلك الزهرة وانتن الثلاث ، نحن جميعا نكون نفس الشيء ، ما هذه الاسئلة ؟ اما زلتن عند هذا الحد ؟ »

ـ « على اية حال فانك تهينين الله بتعريك على هذه الطريقة امام الجميع » .

وهنا تتدخل الراهبة الشابة لتأخذ بعباءتي محاولة وضعها على بطني وعلى نهدي اللذين كانا بالفعل نصف عاريين ، كل ذلك وهي تعتقد انها تطبق ارادة الراهبة الكهلة . لكني ادفعها عني صائحة : « لست انا التي عليها ان تستر نفسها ، بل انك انت التي عليها ان تعري نفسها . عليك الكشف عن صدرك وبطنك وحقويك . عليك ان ترمي تلك المناديل السوداء ، ان تظهري عارية . وهل تلبس الزهور والاشجار والاحصنة والجبال ؟ » تتكلمن عن الله ثم تختبئن من نظراته . لكني ساريك ، نعم ، سأنزع كل تلك الاغطية السوداء القبيحة » .

وهكذا فان نوعا من الصراع لا يلبث ان ينشأ بيني وبين الراهبة . فانا احاول تعريتها وهي تسعى لمنعي من ذلك . لكنها قوية ، قوية ، وعلى اية حال فهي اقوى مني ، بل انها انتصرت علي بينما تركت انا نفسي لاضع رأسي في حضنها ، وبشكل او بآخر ، اغفو ، بينما اشعر في اغفاءتي بيدها الحنون تداعب وجهي وتهندم شعري . وعندما تقف السيارة تساعدني الراهبة الشابة على النزول بينما تتظاهر الاخريان بعدم رؤيتي ، وهكذا اجد نفسي فجأة على الرصيف ، بين الناس امام باب البنسيون . ادخل واغلق على نفسي باب المصعد الكهربائي الذي يبدأ في الصعود في الحال .

واجد نفسي من جديد في ممر البنسيون الطويل الكريه الرائحة. وعندما افتح باب غرفتي يقع نظري ، اول ما يقع ، على الكلب الملقى على جنبه على الارض بلا حراك ، وعيناه مغلقتان جنب الصحن الفارغ . وافكر بانه لا بد وان يكون نائما ، فاذهب والقي بنفسي على السرير ملتفة بالاغطية كيفما اتفق وانا على حالي بكل ملابسي ، واغط من نوي في النوم . لكني احلم بحلم غريب . فانا في ذلك الدرب الذي كنت فيه هذه الليلة ، بينما اقود الكلب من الرسن ، وانا في اتجاه الشمس بينما هي تشرق ، كما اشرقت هذا الصباح خلف صفوف الاشجار . ويظهر قرص الشمس بكامله وتمتلىء السماء بالنور . فأسمع الكلب يقول لي : « حلي وثاقي ، اتركيني اذهب ، لقد حان وقت انفصالنا عن بعض ، فلا بد وان اذهب الى الفردوس » .

وعندها انحني وانزع عنه الرسن ، فأراه يجري من توه كالبرق ليبتعد ويتوارى . واجد نفسي وحيدة فأنفجر في البكاء . وفي مرارة بكائي استيقظ .

انظر الكلب فاجده في مكانه مطروحا الارض جامدا جنب صحنه عيناه مغلقتان ، والحظ بأن شفتيه مكشرتان بعض الشيء بشكل يمكن معه رؤية الاسنان . فانهض ، وقبل اي شيء اخر ، انحني لالمس انفه . واجده باردا ، انها علامة جيدة . لكني اداعبه قليلا فاجد ان جسمه ابرد من انفه . فأعلم عندها بأن الكلب قد مات ، لكني لا افلح في البكاء ، فقد بكيت في الحلم . وفي هذه اللحظة يقرع احدهم الباب صائحا بصوت مزعج : « برقية ! » .

ملاكي

انهض من سريري واذهب وانا بقميص النوم حافية القدمين نحو النافذة لارى حالة السماء . يا للغرابة . لقد اعتدت ان ارى من النافذة الفيللادجو اوليمبيكو بيبونه المرتفعة على الاعمدة وجسوره المنتصبة فوق الشوارع وعليها السيارات المسرعة . فنحن نسكن في منطقة باريولي وبيتنا يطل على الفيللادجو تماما . اما الان فليس من فيللادجو اوليمبيكو وليس من جسور ، ليس هناك الا حديقة تبدو وكأنها غابة بجذوع الصنوبر المائلة هنا وهناك ، والا جو عابس كما لو ان السماء في سبيلها لان تمطر . لكن وعلى اية حال ، فمن المؤكد ان النافذة قد انخفضت اربعة طوابق : فبينما كنت في الدور الخامس ، هاأنذا في الدور الارضي . والقي نظرة حولي ، وهكذا فان الذكريات تبدأ تزهر في خيالي شيئا فشيئا كما لو انها خطام اشوه لسفينة غريقة بدأ يطفو على سطح البحر بعد غرق السفينة : اذكر المحلل النفسي يحدثني بينما هو جالس الى كرسيه خلفي وانا ملقاة ، كما هي العادة ، على الاريكة في مكتبه لاجيب على اسئلته دون ان اراه .. يتكلم

الي اياما واشهرا وسنين .. الصالة في بيتنا غارقة في ضو لا واقعي ذهبي باهر ، بينما يروح زوجي ويأتي جيئة وذهابا وهو يصيح بينما انظره وانا غارقة في مقعدي الوثير ... انا في السرير متكئة الى الوسائد وعيناي نصف مغلقتين وذراعي ممددة على الغطاء بينما يستمر زوجي ليصيح ويصيح ولا اعلم عن ماذا وهو يقطع الغرفة جيئة وذهابا وانا اجيبه بنعم ، نعم دائما ، دون ان ادري اي شيء عن موضوع كلامه، لكني بهذا أسره وارضيه ... زوجي خلف مقود السيارة وانا بجانبه بلهاء من شدة الحزن ، بينما يجلس خلفنا روبرتينو ، وهو ابني ذو الاربعة عشر عاما .. وصولنا الى فريجينة ، الخادمة والطباخة وقد سبقتانا وهما بانتظاري تحت الشرفة ، تفرغان الحقائب ، بينما اذهب انا لانعزل في غرفتي العلوية ، في الطابق الثاني ، والتي اطل من نافذتها الان .. لقد توضح لي كل شيء اذن . اني في فريجينة ، في فيللا مستأجرة ، ذلك لاسترد صحتي بعد انهاك عصبي شديد وخطير حل بي لفترة طويلة . وقد اوصاني الطبيب بالنوم وبالراحة وبالتنزه وباستنشاق هواء البحر ، وقبل كل شيء بأن اعتني بابني . وقد عاد زوجي الان الى روما بينما بقي ابني في فريجينه معي ، وهكذا فانه عليّ ان اكرس نفسي له .

تم الامر ، وهاأنذا استيقظ على وعيي بواجبي الاموي . اترك النافذة واعبر الغرفة مسرعة لافتح الباب وادخل غرفة الجلوس فأطل على الشرفة الداخلية . وهناك ارى شخصا جالسا على مقعد خيزراني وفي يده كتاب . انه رجل صغير ، ذو اكتاف ضيقة وسيقان قصيرة ، قصيرة الى درجة ان قدميه لا تبلغان الارض . لكن وعلى الارجح فهو مجرد فتى صغير .

وعندما انظر اليه ارى انه يشبهني ، فالشعر الاسود الاجعد هو كشعري ، والجبهة البارزة كجبهتي ، والعيون الزرقاء كعيوني ، والانف المعقوف كأنفي والشفتان المتنفختان كشفتي . لكنه ، وبنظاراته ذات العدسات السميكة ، يبدو وكأنه رجل ناضج او استاذ ، لكن من الملاحظ بكل وضوح انه لم يتجاوز الثالثة او الرابعة عشرة من عمره . وانني اعتقد بانه عندما يشبه صبي ما امرأة في عمري ، فمن المحتمل جدا ان يكون ذلك الصبي ابن تلك المرأة . وهكذا فانه بامكاني الاستنتاج ، وبعد كل شيء ، بان ذلك الرجل الصغير والذي ما هو الا صبي لا بد وان يكون روبيرتينو . وهنا يحدثني شيء ما في اعماقي بأن طريقتي هذه في التعرف الى ابني ليست منبعة وقويمة جدا ، لكن ، وفي نهاية الامر ، هل توجد هناك طرق اخرى اشد يقينا تساعد على معرفة الابن ؟ وهكذا فاني اصيح روبيرتينو ، روبيرتينو ، هيا بنا نذهب لنتنزه بعض الوقت » .

انه صبي صغير ، لكن انظروا ان لم يكن له حركات رجل عجوز. فقبل ان يجيبني نابع قراءته بعض الوقت ، ثم ها هو يرفع عينيه الي ليرمقني بنظرة من فوق عدسات نظارته وليقول لي في نهاية الامر : « ها ، لقد استيقظت في النهاية ! أتعلمين كم هي الساعة ؟ انها الثالثة » .

ـ « بعد الظهر او في الصباح ؟ »

ـ « في الثالثة عند الصباح يكون الوقت ليلا ، أليس كذلك ؟ »

ـ « هيا ، تعال نتمشى قليلا » .

ـ « موافق ، لكن ليس قبل ان ترتدي ملابسك » .

ـ « ارتدي ملابسي ؟ »

ـ ايه ، الا نرين انك في قميص النوم ؟

ياللشيطان ، هذا صحيح . اني في قميص النوم الرقيق الشفاف، ثوب غير لائق ليس لتنزه فحسب بل وللظهور امام ابني . وهكذا فاني أهرب صائحة سأعود حالا ، هيىء نفسك ، واعود الى غرفتي ، فأرتدي ثيابي بسرعة وكيفما اتفق ، بينما اناقش بيني وبين نفسي قضية العلاقة بيني وبين روبيرتينو . فقد استطعت بالفعل ،وبفضل التشابه ، بأن اتحقق بان ذلك الفتى هو ابني ، لكن الامر ما زال معلقا. اذ ان عليّ ان اعتني به ولاول مرة بعد عامين هما عاما مرضي ، اي انه علي ان أبني بيني وبينه جسر علاقة الام ـ الان . فكيف اتصرف ؟ واحدث نفسي بأن المشكلة بالنسبة لأم تقليدية ، قديمة ، ليست مطروحة على الاطلاق . فقد كان يكفيها ما كان يسمى بالحب الاموي ، اي ذاك الخليط بين التعلق الحيواني والجهل الفادح . فالام التقليدية تحب ابنها ، على ما يبدو ، لانها ، وكما كان يقال آنئذ ، قد وهبته الحياة . لكنها لم تكن تدري بانها عند وهبها الحياة لابنها قدخلقت منافسا ممكنا لزوجها وعشيقا ممكنا لها . اما الان فان الام العصرية مثلي ، الواعية لهذه القضايا والمزودة باربع سنوات من العلاج التحليلي النفسي ، ليس بوسعها الالتجاء الى الحب الاموي التقليدي . فما العمل اذن؟ وهنا اتذكر بان الطبيب كان يؤكد دائما وبعناد على ان عداء روبيرتينو الصلب لابيه انما هو ذو جذور اوديبية . وهكذا فاني افكر بانه ، وبعد كل شيء ، وبسبب عدم وجود حل أصلح ، سيكون من الافضل لي القبول بعلاقة الام ـ الابن وذلك كما شرعها التحليل النفسي . لكن باية طريقة ؟ واركز تفكيري بالامر بينما ارتدي ثيابي ، وفي النهاية اصل الى بناء الصيغة التالية : عليّ التصرف كأم عصرية تتصنع كونها اما تقليدية تتصنع بدورها كونها اما عصرية . معقد ، أليس كذلك ؟ معقد لدرجة اني وقد استغرقت في حل هذا الارتباك انشغلت عما أقوم به . لقد كنت منذ لحظة في غرفتي وانا بقميص النوم . وها انذا الان بالميني جوب و الجورب القميص » اتمشى في كورنيش غابة فريجينيه بصحبة روبيرتينو .

انه ليس نهارا جميلا . السماء غائمة قاتمة تلوح عبر اوراق اشجار الصنور المتهدلة المدورة ، والخضراء الزرقاء والنسيم يداعبها ويحركها بينما يئن الهواء الرطب كما لو بفعل جماعات من البعوض عظيمة الطنين . هذا بينما تطل الفيللات خلف ابوابها الحديدية وبين الاشجار حزينة بكل نوافذها المغلقة . وبينما لا يوجد مخلوق يعبر ارصفة الغبار حيث بدأ العشب النضير ينمو ، كما انه لا توجد أية سيارة على طريق الاسفلت المليىء بالشقوق والحفر ، المقفر حتى منتهى الافق . ان الوقت ليس وقت اصطياف وفريجينيه مقفرة على مدة النظر. وارمق ابني الذي يسير جنبي صامتا بنظرة . انه صغير ، يضع النظارات ، له جبهة تشبه الصندوق ، وغرة عنجهية في أعلى جبهته تلك ، بطنه بارز وساقاه قصيرتان . واراى بانه يشبه ديكا روميا صغيرا معتدل الحجم منتفخ الصدر في مشيته المتخايلة . على كل هذا لا يهم . فقد اوصاني الطبيب بالاعتناء به ، وهذا ما سافعله .وهكذا فاني اسأله فجأة وبصوت منغم هل انت مسرور يا روبيرتينو بان تتنزه مع الماما في الغابة ؟.

ـ « قبل كل شيء ارجوك ان تقولي امك وليس ماما . لا . لست مسرورا .»

ـ « ولماذا يا كنزي ؟»

ـ « لا تناديني كنزي .لاني كنت اقرأ في كتابي وقد ارغمتني أنت على ترك مطالعتي »

ـ « وماذا كنت تقرأ يا حبيبي ؟»

ـ لا « تناديني حبيبي . كنت أقرأ كتاب مختارات ماو »

ـ « وما هو هذا الكتاب يا قلبي » ؟

ـ« انه كتاب الرئيس ماو وربما عليك ان تقرأيه حتى انت » .

ـ « سأقرأه ، لكن اتعلم يافآري بان عليك ، وقبل كل شيء ، ان تراجع كتاب الرياضيات . فانت ضعيف في الرياضيات يا سعادتي» .

ولا يجيب . يبدو انه قد شعر باهانة . فاكرر مداعبة وملوّحة وهكذا يا طفلي فانت لست بسعيد في ان لك اما شابة جميلة وحسنة الهندام ؟ ماما ذات جسم مغر ونضر ؟ ذات ساقين رائعتين ؟ وصدر

ومؤخرة تامين ؟ او ربما كنت تفضل لن أكون أنا قبيحة وكهلة ومهلهلة الثياب ؟» .

ـ « قلت لك بأن لا تقولي ماما بل امك »

ـ « اتعلم يا هري الصغير لماذا غضبت أنتعلى هذه الطريقة ؟»

ـ « اني لم اغضب »

ـ « بلى يا نور عيني ، لقد غضبت لانك تغار من ابيك »

واراه يمتلىء احتقارا : « انا اغار من ذلك الشخص ؟»

ـ لكن اباك ليس ذاك الشخص يا مخلوقي الصغير » .

ـ « وما هو اذن ؟»

ـ « اشياء كثيرة يا رجيلي . لكنه بالنسبة لك ، وللاسف ، انما هو وقبل كل شيء زوجي . أو تعلم لماذا اقول للاسف ؟»

ـ « لا اعلم ولا يهمني ان أعلم » .

ـ « لانه لديك يا عصفوري عقدة اوديبيه قوية وقوية جداً ،فانت في لا وعيك تريد أن تتزوج من امك وتقتل اباك » ومن الغريب انافول بأن كلماتي الحقيقية والقاسية تلك لم تؤثر به على الاطلاق . بل انه اجابني بصورة مقتضبة كثيفة :

ـ « هذا لا يهمني البتة »

ـ« ولماذا لا يهمك يابطتي الجميلة؟»

ـ « لانها قضايا خاصة وشخصية وفردية »

ـ « وماذا يهمك اذن ؟ »

لكنه يصمت برهة ثم يجيب بكل وقار : اريد ان اقدم لك نصيحة . فعوضا عن ان تذهبي عند الطبيب وتصرفي كل تلك النقود، يمكنك ان تحاولي التحرر من فرديتك » .

ـ« وباية طريقة يا بهجتي ؟»

ـ« بمحبتك للشعب » .

ـ « وانت هل تحب الشعب ياملاكي؟»

ـ « احبه بكل تاكيد »

ماذا يعتريني ؟ لقد كنت حتى هذه اللحظة الام العصرية التي تتصنع كونها اما تقليدية تتصنع بدورها كونها اما مودرن . لكن ها أنا ، وعلى حين غرة ، وقد تملكني حنق شديد . وهكذا فانني التقط غصنا جافا كبيرا من على الارض واهوى به على ابني صارخة « هذا ليس صحيحا ، هذا ليس صحيحا ، انت لا تحب الشعب ، انك تقول هذا في سبيل الدفاع عن نفسك ،انك لا تحب الشعب ،انت تحبني »

لا بد وان يكون صوتي رهيبا ، وكذلك هيئتي . لكني وقبل كل شيء الحظ بان روبير نينو قد ظن « باني اقوم بهذا جادة . وفي الواقع فاني أراه يتراجع مطلقا لاقدامه العنان . انه يهرب ، يلتفت لينظر الي ، ثم يهرب من جديد ويتوارى . ها أنذا وحيد . لكني اهدأ على حين غرة ، فارمي بالغصن ، وأعاود مشيي .

روما

ترجمة نبيل المهاني

اللامنتمي

دراسة تحليلية لأمراض البشر النفسية في القرن العشرين

و ما بعد اللامنتمي

«فلسفة المستقبل»

اشهر واعمق كتابين للكاتب الانكليزي المشهور

كولن ويلسون

صدرا في طبعتين جديدتين انيقتين

منشورات دار الاداب